لجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد "حمّه لخضر" الوادي

معهد العلوم الإسلامية

دروس في الإعجاز اللغوي والبياني

تخصّص: اللغة و الدراسات القرآنية

.

إعداد الدكتور: ميلود عماره.

- محتوى المادة:

- مفهوم المصطلح وتاريخه
- مفهوم البلاغة والفصاحة
- خصائص الخطاب القرآني ومستوياته
- علاقة نظرية النظم بالإعجاز
- مظاهر الإعجاز اللغوي والبياني

المحاضرة الأولى: مفهوم المصطلح وتاريخه

لخّص العلماء تاريخ إعجاز القرآن في أربعة مراحل هامة، ومحطات رئيسة، تُعدّ دراسة تأصيلية لنشأة الإعجاز وتطوره عبر عصوره المختلفة، وفيما يأتي ذكر لهذه المراحل.

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل ظهور المصطلح:

وتتمثّل هذه المرحلة في الصّحابة الكرام والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، وتشمل أيضا المتكلمين الأوائل.

وهي مرحلة لا يمكن للدّارسين والباحثين إهمالها ولا سيما أنّ قضيّة الإعجاز متعلّقة بمصدر الشّريعة الأوّل ألا وهو القرآن الكريم، وبخاصة أنّ أصحاب هذه المرحلة كانت لهم العناية البالغة بهذا المصدر، فيبعَد من حيث الوقوع أن يُسبق هؤلاء إلى شيء يتعلّق بالقرآن الكريم ثمّ لا يتنبهون إليه، ولا يشيرون إلى ما يدلّ على أهميته وفضله.

يقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في سبيل بيان علم السلف والقرون المفضلة: فإنّهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفّوا، ولَهُم على كشف الأمر كانوا أقدر.

لذلك يذكر العلماء، ومنهم محمود شاكر أنّ مرحلة الصّاحبة والتابعين لم تتطرّق بحال إلى قضايا الإعجاز لا بمصطلحه ولا بمفهومه وفي هذا يقول: ((أمّا الصّحابة والتابعون فيقينٌ حاسِمٌ لم يتكلّموا ولم ينظروا في شيء من ذلك، ولا في شيء مثله.)) (1)

ويقول أحد الباحثين في التأريخ لقضية الإعجاز: ((إنّ لفظ الإعجاز لم يرد في القرآن ولا في السنّة، وإنما جاء في القرآن وفي السنّة أنّ ما يعطيه الله جلّ وعلا للأنبياء والرّسل وما آتاه محمّدا صلى الله عليه وسلّم هو آية وبرهان على نبوّته...وإنما هو لفظ حادث، ولابأس باستعماله إذا عُني به المعنى الصحيح.)) (2)

3أمّا ما حدث في فترة ما بعد الصّحابة الكرام من العقائد المنحرفة وظهور الفرق الضالة كالمعتزلة الأوائل، فيقول محمود شاكر مؤصّلا للإعجاز القرآني في هذه الفترة في كتابة

المداخل بقوله: ((حتى إذا انقضت المئة الأولى من الهجرة وانتصفت المئة الثانية أو كادت جاء واصل ابن عطاء الغزال البليغ الألثغ، فاعتزل وشقّ "الكلام" للمتكلّمين من بعده، وصار هو رأس المعتزلة، ومبدأ طريقهم ... وكان حياته مشغولا بالكلام في القدر والصّفات، وأفعال العباد والمنزلة بين المنزلتين، وهي أصل عمل المتكلّمين، ولا يعرف له قول في آيات الرّسل، ولا في القرآن العظيم.)) (4)

- خصائص هذه المرحلة:

1- التوقّف في فهم الشّرع والتعبير عن مصطلحاته إلا بدليل أو مستند شرعي مبيَّن، وفي المقابل يتحرّز السَّلف من الابتداع والإحداث في الدّين بإطلاق ألفاظ جديدة لا تنطبق عن مفهوم حقيقة ما أمر به الدّين الحنيف.

2- أنّ قضايا مصدرية القرآن، وكونه كلام الله، وأنّ بيانَ القرآن فاق كلَّ بيان؛ هي قضايا مسلّمة بالنسبة لأهل هذه المرحلة حتى ظهور حركة الزندقة ومن تصدى للردّ عليهم، وعليه فلا حاجة للكلام عما لا فائدة منه.

<u>المرحلة الثانية: مرحلة تمخّض المصطلح:</u>

تكمن أهمية هذه المرحلة فيمن كان متسبّبا في كثير من المصطلحات المتعلقة بالبلاغة عموما، وبإعجاز القرآن خصوصا.

يقول محمود شاكر بعد دراسة الإرهاصات الأولى التي مهدت لظهور المصطلح، ووصل إلى وجود جلي لعلمين بارزين هما الجاحظ والنظام، يقول: فالأمر البيّن الذي لا يستره إبهام ولا غموض هو أنهما الجاحظ والنظام هما اللّذان كانا أوّل من وضع هذا الشّرط: " مدار الآية على عجز الخليقة"

ومع وجود بعض الإشارات في عناية واهتمام الجاحظ والنّظام بمسائل حجج النّبوة ودلائل الأنبياء؛ لا يمكننا القطع والجزم بأنّ أوّل من استعمل المصطلح هو الجاحظ.

لكن الشيء المتأكّد هو أنّ الجاحظ كان أعظم في شأن الإعجاز من النظام وعظمته تكمن في ((براعته وبيانه ومساهمته في وضع ألفاظ عظيمة الوقع في النفوس بإبهامها واستثارتها ونثرها في جمل بارعة الصّياغة متألّقة الألفاظ فجاءت مثيرة لكوامن الخواطر قريبة

الإيماء بالمعاني البعيدة، ثم بثها في سياق كلامه، فمهّد لغيره أن يتناول القضية تناولا يعينه على أن يصوغها صياغة قابلة للإثبات.))[5]

ومع هذا لم يرد لفظ الإعجاز أبدا في كلام الجاحظ، فلم يستعملها، ولا استعملها أحد من معاصريه من علماء الأمّة على اختلافهم.

فكان **الجاحظ** بذلك هو الذي حرث وزرع وسقى، وترك جني تلك الألفاظ ثمّ صياغتها على شكل مصطلحات علمية.

يقول **فضل حسن عباس:** ((يغلب على ظننا أن مصطلح الإعجاز والمعجزة لم يظهر قبل القرن الثاني الهجري، ولقد نشأ في بيئة المتكلمين الذين كانوا يدافعون عن القرآن الكريم، ويردون أباطيل الملاحدة والزنادقة وأهل الزيغ، والأهواء، وهو مصطلح له ما يؤيده من اللغة))[6]

- خصائص هذه المرحلة:

1. في هذه المرحلة بدأت تظهر ملامح الكلام عن آيات الأنبياء والاستدلال لها، والسبب يعود إلى عدة أسباب، منها: ظهور حركة الزندقة التي اضطرّ أهل الكلام إلى مناقشتهم.
2. ظهور بعض المصطلحات التي وضعها المتكلمون في أثناء خصوماتهم والتمهيد لمصطلحات كان لها بعد ذلك لها الأهمية البالغة، ومنها مصطلح: "إعجاز القرآن".
3. بداية الحديث عن وجوه الإعجاز، كوجه الصَّرفة مثلا، التي نسبت إلى النظّام، والتي أحدثت جدلا واسعا بين النافين لمضمونها والمثبتين له. كما بدأ الكلام في هذه المرحلة عن نظم القرآن وبيانه.

<u>المرحلة الثالثة: مرحلة ظهور المصطلح:</u>

كان الرجل المتسبّب في ميلاد مصطلح الإعجاز هو أبو عبيد الله محمّد بن يزيد الواسطي المعتزلي (ت 306هـ)، وهو أوّل من أنشأ كتابا يحمل عنوانه لفظ: "إعجاز القرآن"، إلا أنّ هذا الكتاب لم يُعثر عليه، لهذا يذكر كثير من العلماء أنّ الواسطي هو أوّل من ولّد مصطلح الإعجاز.

يقول صلاح الدين الخالدي: ((ولعلّ أوّل من استعمل مصطلح الإعجاز كان بعد منتصف القرن الثالث الهجري، وقد ذكر العلماء أنّ الواسطي المعتزلي أوّل من ألّف في

الإعجاز، حيث ألّف كتابا سمّاه: "إعجاز القرآن"))[7]

- خصائص هذه المرحلة:

1. ظهور مصطلح: "إعجاز القرآن" على يد الواسطي.
2. اعتناء العلماء بالتحدّث والتصنيف في آيات الأنبياء عموما، ومعجزة النبي محمد صلى الله عليه وسلم خصوصا.
3. بداية التأليف المستقلّ في إعجاز القرآن.

<u>المرحلة الرابعة: مرحلة ما بعد ظهور المصطلح:</u>

وتمثل هذه المرحلة بداية التأصيل والتقعيد لعلم الإعجاز، بعد بزوغ شمسه وإلف مصطلحه وتبدأ هذه المرحلة من:

الرّماني المعتزلي (ت 384هـ)، وكتابه: "النكت في إعجاز القرآن"، وهذه الرسالة تعد نموذجا لنظرية الإعجاز عند المعتزلة، أما عن وجوه الإعجاز المعتمدة عند الرماني فيمكن تلخيصها في ثلاثة أوجه: البلاغة، والإخبار الصادق عن المستقبل، والصّرفة.

ثم تلاه: **أبو سليمان الخطابي البُستي**، (ت:388هـ) ورسالته: "بيان إعجاز القرآن"، التي حاول من خلالها الوقوف على حقيقة البلاغة القرآنية، يقول محمد أبو موسى: ((ولأجل هذا كان الخطابي أول من أدار درس الإعجاز البلاغي – فيما نعلم– على غير الوجه الذي أداره عليه غيره فلم يتكلم في التشبيه ولا الاستعارة ...وغير ذلك مما ألف الناس الخوض فيه حين يتكلمون عن الإعجاز البلاغي...وإنما حاول الخطابي أن يقع على البلاغة القرآنية التي هي كخلق الإنسان، ورفع الأرض، ورفع السماء من غير عمد ترونها.))[8]

ثم جاء الإمام **أبو بكر الباقلاني**، (ت: 403هـ) وكتابه: " إعجاز القرآن " الذي يعد صورة لما انتهى إليه مفهوم الإعجاز في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريين.

والباقلاني لا يرى الإعجاز في النظم والتأليف العجيب فقط، وإنما يرى الإعجاز في كل ما جاء به القرآن، وهو ما يسمى بالإعجاز الشمولي.

ومن الأعلام الذين أسسوا لدرس إعجاز القرآن: **القاضي عبد الجبّار المعتزلي** (ت: 415هـ) من خلال كتابه: المغني في أبواب التوحيد والعدل، الذي خصص فيه الجزء السادس عشر لإعجاز القرآن ويقرر القاضي عبد الجبار من طريقه أن خروج القرآن على

قدر الفصاحة المألوفة عند العرب يوجب كونه معجزا، كما اعتبر أن المعجزات المادية والحسية لا يمكن الاعتماد عليها لإثبات صحة النبوة بل تعتمد المعجزة الباقية وهي القرآن الكريم.

ليأتي بعدها **عبد القاهر الجرجاني** (ت: 471هـ) ممثلا لجوهرة القرن الخامس الهجري في إضافة قيمة تأسيسية لبناء صرح الإعجاز وذلك من خلال كتابيه: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة الذي بين من خلالهما أن القرآن الكريم معجز بنظمه وبنظرية النظم اشتهر الجرجاني، في حين نفى وجوه الإعجاز الأخرى، وبهذه الفكرة بان تأثر الزمخشري مستوعبا مضامينها ومحتواها وقد طبق نظرية النظم في تفسيره الكشاف.

ويمكن أن نقدّم تلخيصا موجَزا لأهمّ القرون التي شهدت نهضة في إعجاز القرآن عبر تاريخنا الإسلامي:

الأول: القرن الرابع الهجري: يمثّل هذا القرن مرحلة ميلاد المصطلح، وذلك على يد الواسطي المعتزلي.

كما شهد مرحلة التأسيس والتأصيل لأفكار وآراء جديدة في الإعجاز، وقد حمل لوائها عالمان هما: الرّماني والخطابي.

الثاني: القرن الخامس الهجري: شهد تفصيل القول في وجوه الإعجاز، وبسط الأدلّة عليه، وتمّ ذلك على يد العلماء الثلاثة: أبو بكر الباقلاني، والقاضي عبد الجبار، وعبد القاهر الجرجاني.

الثالث: القرن الرابع عشر الهجري: شهد توسّعا كبيرا في الكلام على قضايا الإعجاز، على أيدي علماء وأدباء وباحثين فكثر التفصيل في حقيقة الإعجاز، وبيان وجوهه وألوانه وفي أمثلته وتطبيقاته.

* **أهم دعاة الإعجاز البياني:** مصطفى صادق الرفاعي، عبد الله دراز، أمين الخولي، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، فاضل السامرائي، وغيرهم.

* **أهم دعاة الإعجاز العلمي:** عبد الله فكري، علي فكري، عبد الرزاق نوفل، طنطاوي جوهري، وغيرهم.

المحاضرة الثانية: مفهوم البلاغة و الفصاحة

كل كلمة فيه لها وقع على النفوس، وكل عبارة تجمع هذه الكلمات تصور لنا معنى كاملا بشكل دقيق

والحق أقول لا يمكننا تصور مدى تفرد أسلوب الخطاب القرآني إلا بالمعرفة الدقيقة لعلم البلاغة " فالإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خص الله به كتابه من حسن التأليف وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع؛ والاختصار اللطيف إلى غير ذلك من محاسنه؛ التي عجز الخلق عنها؛ لأن البلاغة تُعتبر من أهم وسائل إدراك الإعجاز القرآني، وذلك بأن يتمكن البليغ فيها ويتقنها ويفهم أساليبها وفنونها " [1].

إن أسلوب الخطاب القرآني متكامل من جميع نواحيه، فهو قمة في بنائه؛ تجد بين الحرفين ملاءمة وحبكا، وبين مفرداته تناسبا وائتلافا، وبين الجمل ترابطا وتكاملا، " فالكلام يقوم بأشياء ثلاثة لفظ حامل ومعنى به قائم وربط لهما ناظم، ثم إن القرآن هو الذي جمع نهايات الفضل في هذه العناصر الثلاثة، فإذا تأملته وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة؛

المحاضرة الثالثة: خصائص الأسلوب القرآني؛ ومستوياته.

1-الإحاطة بما يؤثر في النفس:

يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[54]، فالله – جل شأنه – هو العالم بالخصائص الذاتية للمخلوقات المخاطبة بالقرآن وما جُبلت عليه من غرائز؛ وفطرت عليه من حاجات.

ولذا فإن الخطاب القرآني يركز على هاته المؤثرات

فهو يخاطب الحنان والعاطفة الميالة للجنس والانتماء الأسري؛ وحب البيت والقبيلة، قال تعالى مثيرا عاطفة الإنسان الاجتماعية: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [55].

وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [56].

كما قال في ذم ما يصبو إليه البشر من حب المال؛ والتملك؛ والحرص؛ والطمع؛ وحب الخلود؛ والتمسك بطول الأمد: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [57].

فالملاحظ من خطاب القرآن أنه يركز كثيرا على الغرائز المحيطة بالإنسان؛ لأن ذلك أنجع طريق للهداية والدفع بالأقوام لسبل الطاعة؛ وإبعادهم عن طرق الغواية.

منذ نزول الوحي، شد أسلوب الخطاب القرآني اهتمام العرب، فخر جبابرة البيان صاغرين لبلاغته؛ لأنه كلام الخالق المعجز.

2-توجيه الخطاب لجميع العقائد:

خاطب النص القرآني جميع الناس على اختلاف معتقداتهم، ودليل ذلك قول الله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ويَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [38].

فالآية تضمنت إفراد الله تعالى بالحمد كله [39]، وأبطلت في الحين نفسه جميع المعتقدات مهما تعددت واختلفت؛ لأن الله تعالى بين أنه خالق السماوات والأرض، والظلمات والنور، فتأكد ضمنا أن عباد هذه المخلوقات على ضلال، وقال بعدها ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.

ثم أبطل عدولهم عن الصواب، وبين بالحجة التي تعرض حقيقة خلق الإنسان وتقدير أجله؛ ليقول: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾، أي: أنهم يكابرون والله عليم بهذا، فهو في السماء وفي الأرض مطلع على السر والعلن.

وفي خطاب القرآن على لسان إبراهيم – سلام الله عليه – قومه نجد الاستعراض الواضح البين للمعتقدات المخالفة، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ

فأقام إبراهيم – عليه السلام – خطابه هذا على الحجة العقلية؛ والتي تستعرض المعتقدات المختلفة لتثبيت العقيدة التي ينوي تبليغها.

ويأتي الخطاب في القرآن قويا للمتطفلين على حاكمية الله في الأرض، المعتقدين أنهم مشرعون يحلون ويحرمون حسب أهوائهم من دون الله، قال الله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ

الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [43].

3-جودة السبك:

تتماسك ألفاظ الخطاب القرآني بشكل يشد بعضها بعضا؛ لتتآخى جرسا وإيقاعا؛ إذ يستحيل الاستغناء عن كلمة من الآيات دون الإخلال بالمعنى؛ لأن الكلمات في القرآن مختارة لمغزى يقصد الخطاب إبلاغه.

فالخطاب في القرآن يأتي بصياغة مقصودة، وحروف مُحكمة؛ تؤدي جرسا وإيقاعا دقيقا، لا يتم المعنى إلا بها، وهذه خصيصة من خصائص الخطاب القرآني.

ثانيا: أنواع الخطاب القرآني:

1- خطاب عام:

نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[4]، وقوله تعالى على لسان سليمان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [5]، ويتجلى ذلك أكثر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [6].

وفي السياق نفسه يقول عز من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [7]، وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [8]، وفي غير ذلك من الآيات؛ التي يكون فيها الخطاب موجها للعموم، على عكس بعض الآيات التي يبتغي فيها القرآن أسلوب التخصيص.

2- **خطاب خاص:**

أ- خطاب موجه للأنبياء والرسل:

مثل قوله تعالى: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [9]، و قوله تعالى: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [10]، وقوله جل وعلا: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي

ب- خطاب موجه للمؤمنين والصالحين:

مثال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ﴾ [12]، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[13]، وقوله جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[14]

ج- **خطاب موجه لأهل الكتاب:**

نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ﴾ [18]، وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [19]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ [20].

د- **خطاب موجه للمنافقين:**

مثل قول الله: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[21]، وقوله جل شأنه: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[22].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [23].

المحاضرة الرابعة: علاقة نظرية النظم بالإعجاز

تطور نظرية النظم وبيان الإعجاز

إن علم البلاغة قد نشأ نشأته الأولى على طريقة الردود المتكاثرة حول فكرة الصرفة، فكان أول من انبرى للرد عليها فيما عرفت من الكتب أبو عثمان الجاحظ فألف كتابا سماه "نظم القرآن"، غير أن المؤلف نفسه قد أشار إلى الكتاب في رسالته المسماة ب"حجج النبوة" كما أشار إليه غيره. ولكن رأي المؤلف في نظم القرآن وإعجازه يبدو جليا في إشاراته المقتضبة من كتابيه "الحيوان" و"البيان والتبيين".

كأبي بكر السجستاني الذي سمى كتابه "نظم القرآن"، ووضع بعده أبو زيد البلخي كتابا سماه كذلك "نظم القرآن"

وكل هذه الكتب المؤلفة قبل القرن الرابع الهجري في إعجاز القرآن لم تصل إلينا. ولكن توجد قرائن نستفيد منها، لأن مؤلفات القوم في إعجاز القرآن كانت محدودة وقتئذ في الناحية النقدية. ولقد أشار الجاحظ في غير موضع من كتبه إشارات تدل على أن منهجه في إقرار الإعجاز ومحاولة إبرازه كانت محصورة في بيان المعاني الغزيرة في الآيات القرآنية القليلة الكلمات

كما ورد في كتابه "الحيوان" قوله:{{ ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن؛ لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة: "لا يصدعون عنها ولا ينزفون" وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال: "لا مقطوعة ولا ممنوعة" جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني.}}

لقد كتب الله البقاء لكتب أخرى ثلاثة ألفت في القرن الرابع؛ أولها: كتاب "النكت في إعجاز القرآن" لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، وثانيها: كتاب "بيان إعجاز القرآن" لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، وثالثها: كتاب "إعجاز القرآن" للباقلاني. وهذه الكتب الثلاثة تكفينا المؤونة لنعرف منهج البحث عن قضية الإعجاز في ذلك الزمن وقبله

وقد حط الخطابي من أقدار من سبقوه في تأليف الإعجاز أنهم "قد أكثروا الكلام في هذا الباب قديما وحديثا، وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعد صدروا من ري"(2). فمن هنا نفهم أن المدافعين عن إعجاز القرآن البياني من القدماء، وإن أثبتوا الإعجاز ودفعوا الصرفة ونقضوها فلم يجيئوا بما يروي الغليل، في تحديد وجه إعجازه ، وذلك – كما يقول الخطابي – لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته.

حتى جاء عبد القاهر الجرجاني فكشف عن غوامض ما قد أحيط من الأقاويل في نظم القرآن، وأبرز من وجوه إعجازه ما أقنعت أهل اللغة والبلاغة، فأصبحت النظرية معروفة به في كتابه القيم "دلائل الإعجاز" أساس علم المعاني/ ومع عبد القاهر، انتهى – كما يرى بعض الباحثين – الصراع بغلبة أصول المنهج القرآني الذي يرى أن سبب إعجاز النص كامن في نظمه وطريقة بنائه

النظم بين التحقيق والتطبيق:

نستطيع أن نقرر أن النظرية قد مرت بمرحلتين أساسيتين:

أولاهما: غامضة، وهي تمثل مرحلة تثبيت الإعجاز وتحقيقه؛ وهي عصر ما بين الجاحظ وعبد القاهر أي من القرن الثالث إلى القرن الخامس الهجريين.

أخراهما: واضحة بينة تمثل مرحلة تطبيق النظرية في نصوص دامغة؛ وتمتد من لدن عبد القاهر إلى ما وراءه.

أ – **النظم قبل عبد القاهر:**

لقد ذكر البلاغيون وجوها عديدة يختبئ فيها سر الإعجاز،....لا نجدها تخرج بشكل عام عن دائرة النظم الذي كادوا يجمعون على كونه المرجع الأساس للإعجاز. ولكنهم وإن أثبتوا وجوده وحققوا، فلم يحددوا ولم يضبطوا، "ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن

...

فالقدماء الذين سبقوا عبد القاهر لم ينبهوا في إثبات بلاغة النظم إلا عما يتعلق بمترادفات الألفاظ

ولم يسلك العلماء القدامى في محاولة تحقيقهم للإعجاز وإبراز وجوهه مسلكا لغويا صرفا بل أدبيا على غرار ما عرف في عصرهم من النقد الذي كان مستعملا في الموازنات، والمعارضات، والمناقضات، والمساجلات،....

ومن هنا نعرف أن عصر ما قبل عبد القاهر لم يفد من نظرية النظم ضبط الإعجاز وإن أقره وأثبت حقيقته.

وهكذا كان "النظم" حتى جاء عبد القاهر فأبرز غوامضه، وجمع نواحيه، وفسره على طريقة لغوية قام فيها بإعداد نظرية مطبقة استفاد منه من جاءوا بعده، فأصبحوا يلتمسون إعجاز القرآن الذي لم يكن القدماء يفسرونه إلا بالذوق على ضوء علمي عبد القاهر "البيان" و"المعاني" فأصبح منهج البحث عن الإعجاز منهجا تطبيقيا،

ب – نظرية النظم الجرجانية:

لئن كانت نظرية النظم ومقترنة بعبد القاهر، فإن جذورها قد ظهرت منذ بداية الصراع بين الصرفة والإعجاز البياني. وفي ذلك صنفت كتب "النظم" و"الإعجاز"، فذكر كل من الجاحظ

والباقلاني وعبد الجبار أن المعول في الإعجاز يعود إلى النظم وكيفيات الصياغة وخصائص الأسلوب، وإن اختلف جملة مذهبهم في محاولة توضيح ذلك

فكان أول ما اهتم به ثنائية اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما؛

فما هذا النظم الذي هو مناط الإعجاز إذن عنده؟ فهو يجيب إلى أنه "ليس شيئا غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، وأنا إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم للكلم المفردة سلكا ينظمها، وجامعا يجمع شملها ويؤلفها، ويجعل بعضها بسبب من بعض غير توخي معاني النحو وأحكامه فيها، طلبنا ما كل محال دونه"

فالمعول في كل ذلك عند عبد القاهر هو أن يختار للفظ موضعه الأليق ترتيبا وتركيبا وتأليفا وصياغة،

هذا التفريق الدقيق الذي يكون في نظم الكلام والذي ينبه عنه عبد القاهر نفهمه إذا رجعنا إلى غلط أبي العالية في الآية: "الذين هم عن صلاتهم ساهون"، قال: الذي ينصرف ولا يدري عن شفع أو وتر، فرد عليه الحسن بأنه لو كان كذلك لقال: "الذين هم في صلاتهم ساهون، فلم يفرق أبو العالية بين "في" و"عن" حتى تنبه له الحسن

وهذا الذي اشتبه على الكندي المتفلسف فزعم حشوا قولهم: "عبد الله قائم"، "إن عبد الله قائم"، "إن عبد الله لقائم" حتى يتنبه له أبو العباس المبرد أن المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: "عبد الله قائم" إخبار عن قيامه، وقولهم: "إن عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل، وقولهم: "إن عبد الله لقائم" جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني.

تحليل آية وفق فكرة النظم

قل: "ابلعي"، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء ب"ي" دون "أي" نحو: يا أيتها الأرض. ثم إضافة "الماء" إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها. ثم أن قيل: وغيض الماء. فجاء الفعل على صيغة "فعل" الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر. ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: "قضي الأمر". ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو "استوت على الجودي"، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن. ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة ب"قيل" في الفاتحة"(28).